16

بعد المحاكمة

كان تصريحاً في غاية البساطة، ثلاث كلمات فقط خرجت من فم الرئيس الذي تفوه بها بطريقة مباشرة ولهجة حاسمة: «نعم، أنا فعلت». لكن هذه الكلمات أثارت في نفسي شعوراً بالصدمة وعدم التصديق. وثبت لي في أعقابها أنها كانت الضربة الحاسمة – وهي الضربة المؤلمة الأخيرة التي جعلتني أتأكد أنه ليس بإمكاني الاستمرار في العمل لدى إدارة بوش إلى ما لانهاية.

كنت ألج إلى الطائرة الرئاسية الرابضة في مطار تشارلوت في كارولينا الشمالية بعد ظهر يوم السادس من شهر نيسان؛ أبريل، سنة 2006. كان الرئيس يجلس إلى مكتبه في الطائرة، وعندما لمحني، أشار إليّ وإلى دان بارتليت. كان كلانا قد صعد إلى الطائرة وراءه مباشرة. سألنا بوش: «لماذا يصرخ؟»

كان يقصد بسؤاله مراسل محطة ABC الإخبارية، جيف موريل الذي قام بتغطية الأحداث في البيت الأبيض، والذي كان يصيح منادياً بوش وهو على الأرض الإسفلتية للمطار منذ دقائق قليلة. في ذلك الصباح كان الرئيس قد أدلى ببعض التصريحات بشأن إستراتيجيتنا في العراق، وشارك في جلسة من الأسئلة والأجوبة مع أعضاء مجلس تشارلوت للشؤون الدولية. في غضون ذلك، كان مجلس الشيوخ في واشنطن يحرز بعض التقدم الملحوظ حول إصلاح شامل لموضوع الهجرة، وقررنا أن نقترح على الرئيس الإدلاء بتصريح في المطار للترحيب بهذه الجهود الحزبية المشتركة.

لم يكن بوش يقبل أن تطرح عليه أسئلة من الصحفيين عصر ذلك اليوم، ولكن موريل كان يتوق إلى الحصول على جواب من الرئيس حول أهم خبر عاجل ورد في ذلك اليوم ويتعلق بملف في المحكمة له علاقة بمحاكمة سكوتر ليبي من قبل باتريك فيتزجيرالد،

المدعي الخاص. سمع دان السؤال الذي طرحه موريل، وأطلع بوش على فحوى سؤاله. قال دان إن الصحفي كان يسأل عن شهادة ليبي أمام هيئة المحلفين الكبرى وحكاية تسريب تقويم المخابرات الوطنية التي كشف فيتزجيرالد عن إجراءاتها القانونية.

أضفت: «يؤكد أنك أنت من أعطى الأوامر بتسريب حكاية تقويم الاستخبارات الوطنية».

أجاب بوش ببساطة: «نعم، أنا فعلت». كانت تعبيرات وجهه تنم عن أنه غير راغب في أن يخوض في التفصيلات أكثر من ذلك. ولم أتوقع منه أن يفعل، طالما أن محاميه الشخصي جيم شارب نصحه بعدم مناقشة أي تفصيلات تتعلق بمحاكمة ليبي.

لم أكن متأكداً مما سأقوله. فقد علمت لتوي بالملف الذي أعده المدعي فيتزجيرالد طريق التقارير الإعلامية. ولكن هذا التصريح الذي كان بمنزلة قنبلة، سيزيد إذا ما ثبتت صحته، من حدة الضرر الذي سببته قضية فاليري بليم لإدارة بوش - ولي شخصياً كوني كبير الناطقين باسمها. صدمتني مفاجأة سماع اعتراف الرئيس بكل بساطة بصحة هذه الاتهامات، كما لو كان يتحدث عن شيء لا يزيد أهمية عن نتيجة مباراة في البيسبول.

تعود جذور هذه الحكاية إلى شهر تموز، يوليو، سنة 2003 عندما كنت أحضر نفسي لاستلام منصب السكرتير الصحفي. كان اللغط المتشابك حول الكلمات الست عشرة الملتبسة التي تضمنها الخطاب حول حال الاتحاد، بما في ذلك الزعم غير المثبت بشأن اليورانيوم من النيجر، وتسريب اسم فاليري بليم وهويتها كعميل لوكالة المخابرات المركزية ما يزال دائراً. في خضم هذه المناظرات، صرحت مستشارة الأمن القومي حينها، كوندوليزا رايس علناً أن تقويم المخابرات الوطنية الصادر في شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2002 قدم دليلاً يدعم فكرة أن العراق حاول الحصول على اليورانيوم من إفريقيا، وتحديداً من النيجر. ولكن عندما سئلت فيما إذا كان من الممكن أن يتم رفع السرية عن تقويم الاستخبارات الوطنية بحيث يكون بمقدور الشعب الأمريكي أن يحكم على الدليل بنفسه، أجابت رايس - وكان هذا ضمن خط سياسة الإدارة - أن البيت الأبيض «لم يشأ محاولة الدخول إلى نوع من رفع السرية بطريقة انتقائية» بالرغم من أنها أضافت أننا ندقق في احتمال أن تكون أجزاء من هذا التقويم قابلة للطرح علناً عبر رفع السرية عنه بواسطة القنوات الرسمية.

بالاستنـاد إلى الشهادة التي كان ليبي يـدلي بها أمام هيئة المحلفين الكبرى وذلك في الوقت نفسه الذي كانت رايس تؤكد أن البيت الأبيض يعارض «رفع غطاء السرية بصورة انتقائية»، فإن الرئيس بوش بنفسه كان متورطاً في حقيقة الأمر بعملية رفع غطاء السرية بصـورة انتقائية. فقد أصـدر أوامره باستعمال فقرات من تقـويم الاستخبارات الوطنية الصادر في شهر تشرين الأول، أكتوبر، بغرض النيل من مصداقية الهجوم الذي يقوم به جـو ويلسون ضـد مصداقية الإدارة – وهي الحملة التي تضمنت في نهاية المطاف تسريب هوية بليم، وأدت إلى إصدار لائحة اتهام ضد سكوتر ليبي.

الآن، ومـع التلفـظ بهذه الكلمات الثلاث البسيطة «نعم، أنـا فعلت»، فإن الرئيس كان يقـول لي إن شهادة ليبي بشأن تقـويم الاستخبارات الوطنية – الذي اطلعت على تفاصيل أكـبر حولـه فيما بعد – كانت صحيحـة، وإن تصريحاته وتصريحاتـي حول حرمة سرية الاستخبارات كانت فارغة من المضمون.

لم يتردد الديمقراطيون في الوثوب على هذا الدليل الأخير على قيام إدارة بوش بحجب الحقيقـة على الأقل. قـال السيناتور عن مدينة نيويورك، تشارلز شومر، إذا كان الرئيس قـد أصدر أوامره بتسريب المعلومات، فإن على الشعب الأمريكي «أن يعرف ما الذي يميز تسريبه للمعلومات عن التسريب الذي قام به الآخرون الذين أدانهم الرئيس بنفسه».

غالبـاً مـا كان الرئيس بوش يشجب بشدة عمليـات التسريب الانتقائيـة. ففي شهر كانون الأول، ديسمبر الفائت، أدان بشكل علني تسريب صحيفة نيويورك تايمز لمعلومات سريـة للغايـة حول برنامج المراقبة غير المسموح به، والـذي تم الأمر بتطبيقه في أعقاب هجمـات الحـادي عشر من أيلول وذلـك لإتاحة المجـال لوكالة الأمـن القومي كي تقوم بعمليات تنصت على الاتصالات الدولية التي يمكن أن يقوم بها المشتبه بهم أو المعروفون بانتمائهم إلى تنظيم القاعدة.

توصلتُ في الأيام التي تلت الكشف عن رفع غطاء السرية عن تقويم المخابرات الوطنية إلى قناعة شخصية حاسمة. وكان رفع الغطاء عن هذه المعلومات بشكل سري قد نال من مصداقية ما كان يكرره الرئيس دائماً، وما كنت أردد صداه بالوتيرة نفسها في المؤتمرات

الصحفيــة. لا أعتقد أنه كان في نية الرئيس بوش تضليلي أو تضليل كبار مستشاريه مثل كونـدي؛ إلا أن أفعالــه السريــة كانت تعني أننا تعرضنا لعملية خـداع سواء كان ذلك عن قصد أو من دون قصد.

عندمــا تم الكشف عن عملية رفـع الغطاء عن سرية تقـويم الاستخبارات الوطنية، كانــت إدارة بوش تمر بأوقــات حرجة. فالتفاؤل والزخم اللــذان شعرنا بهما بعد حملة إعادة الانتخاب الناجحة، تبخرا بسرعة. فقد تعرضت الإدارة إلى الصد عند محاولتنا استمالــة الرأي العام واستعماله للضغط علــى الكونغرس لإصلاح الضمان الاجتماعي. وبالرغـم من أن الإدارة قامت بحملة هائلــة تهدف إلى تجييش الدعم الشعبي من أجل إصــلاح الضمــان الاجتماعي، فقد أظهــرت استطلاعات الــرأي أن غالبية الأمريكيين يرفضــون مفهومنا المفضــل لموضوع الحسابات الشخصية، ويقفــون ضد فكرة الحاجة إلى القيام بتغييرات في البرنامج الشعبي. في نهاية شهر أيار، مايو، سنة 2005، عندما قام رئيس الغالبية النيابية في الكونغرس روي بلانت بوضع لائحة تتضمن «تشريعاً بشأن تحديــد الأولويات» يعمل بــه بعد يوم النصب التذكاري، لم يكن مشروع إصلاح الضمان الاجتماعــي ضمــن تلك اللائحة؛ وكان هــذا مؤشراً على موت مشــروع إصلاح التأهيل كواحــد من أهــداف الحزب الجمهــوري على المــدى القصير. وعندما ضــرب إعصار كاترينا، كان الأمل باستعادة الزخم لهذا المشروع قد تلاشى إلى الأبد.

بحلــول ربيع سنــة 2006، كنا نحــن العاملين في البيــت الأبيض في عهــد بوش نكافح على امتداد أشهــر طويلة محاولين التغلب على الإحساس بالعجز الذي تسببت به طريقة تعاملنــا الأوليــة مع إعصــار كاترينا، والحال التــي تزداد ترديداً في العــراق (بما في ذلك تدمــير المسجد الذهبي في سامــراء الذي أدى إلى تأجيج الصــراع المذهبي هناك)، وما رافق ذلك من انخفاض ملحوظ في معدل التأييد للرئيس.

في الثامــن والعشرين من شهــر آذار، مارس، أعلن آنــدي كارد استقالته من منصب رئاســة الأركان في البيــت الأبيض. ولقــد فرض على الرئيس قبولهــا ليس بالطريقة التي

يرغب فيها هو أو غيره ترك البيت الأبيض. لكن وقت التغيير قد حان، وكان آندي البعيد كل البعـد عن الأنانية وذو الخبرة الطويلة في مجـال العمل الحكومي، يعرف ذلك جيداً. فقـد كان مستعداً لتلقي الضربة فيما لو كان ذلك يساعد في تحسين معدل قبول الجمهور لبوش والفريق الذي يساعده في قيادة البلاد.

قـال لي آنـدي عندما كنا نتحدث عـن هذا الموضـوع في مكتبه: «فكـر بالأمر. هناك أربعة، أو ربما خمسة أشخاص في الإدارة يمكن أن تشكل استقالة أي منهم فرقاً بالنسبة للجمهـور. أحد هؤلاء الأشخاص هو أنا، وهناك نائـب الرئيس، وهذا لن يحدث، وهناك كونـدي، وهذا لن يحدث، وهنـاك رمسفيلد، وهذا ليس من الممكـن أن يحدث؛ لكن هذا يبقـى بينـه وبين الرئيس». كان الخيار الوحيد أمام آندي يكمن في أن يبادر هو إلى تقديم استقالته، ويفسح المجال لرئيس أركان جديد كي يدير العرض.

ساعـد هـذا الحديث مع آنـدي في ترسيخ فكـرة إجراء تغيير في وضعـي داخل البيت الأبيض. ولقد بدأت في التفكير في هذا الموضوع منذ شهر تموز، يوليو، سنة 2005 عندما تبين أن ما قلته في معرض دفاعي عن كارل روف ، وفيما بعد، عن سكوتر ليبي حول اللغط الدائـر بشـأن تسريب اسم بليـم كان مغايراً للحقيقة. شعرت بأننـي ورقة محروقة. لقد مررنا بتجربة الكشف عن التجسس غير القانوني على الاتصالات، وبفضيحة السرقة من أحد المتاجر التي قام بها أحد كبار المساعدين السابقين، بالإضافة إلى حادثة إطلاق النار في رحلـة الصيد التي كان بطلها نائب الرئيـس، وكانت تشبه الفضيحة. ومع الكشف عن طريقـة رفع الغطاء عن سرية المعلومات الـواردة في تقويم الاستخبارات الوطنية، شعرت بأنني أحترق شيئاً فشيئاً. لكنني لم أشأ ترك الرئيس في خضم هذا اللغط الهائج. شعرت بأننـي لو فعلت ذلك، فسأعتبر نفسي غير منصف بحقه، وسيكون هذا سيئاً بالنسبة إلى الإدارة. بدأت بالتفكير أن الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2006 حيث ستكتمل حينهـا مدة السنوات الثـلاث التي قضيتها سكرتـيراً صحفياً، هو موعـد مناسب لأتخذ الخطـوة الثانية في مهنتي. وسوف أعلن عن هذه الخطوة عندما يحين الوقت، وقررت أن هذا سيكون ربما في شهر أيار، مايو.

ونظراً لأن آندي كان على وشك مغادرة موقعه، فقد تقرر أن يأخذ مكانه جوش بولتين رئيساً لأركان البيت الأبيض. كان يشغل في السابق منصب مدير مكتب الإدارة والميزانية، وقبل ذلك، كان نائب رئيس الأركان لشؤون السياسة. كان من الأتباع الموثوقين؛ وقد عمل مع بوش منذ أن كان مدير السياسة في الحملة الانتخابية الرئاسية الأولى.

تحدثت إلى جوش في اليوم الأول الذي أعلن فيه تعيينه بديلاً عن آندي (وهكذا كان باستطاعتي إخبار الصحافة بهذا الموضوع بشكل كامل)، والذي تزامن مع الإعلان عن استقالة هذا الأخير. أشار أيضاً إلى أنه يرغب بزيارتي قريباً، لكنه لم يشر إلى أن أمراً عاجلاً يدور في ذهنه، أو أن لديه شيئاً يشغل باله، ويريد أن يتحدث معي بشأنه – فقط أراد أن يطلع مني على أفكار حول الاتصالات في البيت الأبيض.

ولكن في الأسبوع اللاحق بعد أن غادر الرئيس إلى كامب ديفيد يوم الخميس لقضاء عطلة نهاية أسبوع مطولة لأنها تزامنت مع عيد الفصح، طلب جوش أن أوافيه إلى مكتبه. كانت هناك تقارير في الأفق تتحدث عن نيته إجراء تغيير في منصب السكرتير الصحفي، وكنت مستعداً لإبلاغ جوش أنني مستعد لترك منصبي في تاريخ نتفق عليه معاً، وأن هذا التاريخ لن يتجاوز الخامس عشر من شهر تموز، يوليو. افترضت أنه لن يعترض على هذا التوقيت. فكرت في استباق حمى وسائل الإعلام حول احتمالات التغيير في مواقع البيت الأبيض، والتي تلي في العادة تغيير رئيس الأركان؛ إلا أن افتراضي كان خاطئاً.

رحب بي جوش، جلست بعدها على أريكته. وقبل أن يكون باستطاعتي التفوه بأي كلمة، اتجه مباشرة إلى الموضوع قائلاً بنبرة لطيفة وموزونة: «ما سأقوله الآن لن يكون من دواعي سروري؛ في الواقع، أنت محبوب من الجميع هنا. وأنا شخصياً أحبك، ولكنني أعتقد أن البيت الأبيض هذا مشلول بدرجة كبيرة، ويحتاج إلى تغيير. وأحد المواقع التي قررت أن يتم التغيير فيها هو منصبك. عندما طلب الرئيس إلي شغل منصب رئيس الأركان، أكد لي أنني أملك كامل الصلاحيات لإجراء تغييرات أجد أنها ضرورية لضخ النشاط من جديد في مفاصل البيت الأبيض. هذا ليس قراره، أو قرار دان بارتليت؛ إنه قراري أنا».

كنت أتلقى كل ذلك وأنا جالس، ولكنني لم أكن أشعر بالسعادة وأنا أصغي إلى جوش وهو يبدأ الحديث قبل أن يعطي نفسه مجالاً لكي يسمع ما أردت أن أقوله. بعد ذلك قلت: «أتفهم ذلك، يجب أن تعرف أنني كنت أفكر بموضوع ترك المنصب منذ مدة طويلة؛ وكنت أفكر أن شهر تموز، يوليو القادم المصادف لخط نهاية الثلاث سنوات هو الموعد المناسب لذلك».

قال جوش: «حسنٌ، في هذه الحال، هذا يسهل الأمر كثيراً. كنت أنوي إبلاغ كبار الموظفين يوم الاثنين القادم أن أي شخص يفكر في ترك منصبه خلال الأشهر القليلة القادمة عليه أن يبادر إلى القيام بذلك. أريد أن يكون أفراد الفريق الذين سيمارسون أعمالهم حتى نهاية السنة في مواقعهم خلال الأسبوعين القادمين. يمكنك إبلاغ الصحافة أن هذا هو السبب الذي دفعك إلى ترك المنصب الآن. فكرت في أن يوم الغد هو الوقت المناسب لك كي تعلن عن استقالتك».

أترك منصبي خلال أسبوعين؟ أعلن عن ذلك غداً؟ ليس هذا ما كان يجول في خاطري.

كانت ردة فعلي العاطفية قوية ومباشرة. فكرت في نفسي: إنه مستعد للإلقاء بي إلى الذئاب. استعرضت المدة التي عملت فيها مع الرئيس، وكم كنت وفياً له، وكيف ألقيت بنفسي أمام الحافلة خلال مدة اللغط الدائر حول تسريب اسم فاليري بليم – وكيف ضحيت بمصداقيتي من أجل هذه الإدارة. والآن، فهو غير معني البتة في أن يترك للعاصفة الحالية أن تمر بسلام. أشكرك على كل شيء قمت به يا سكوت – ولا تنسى أن تنتبه كي لا يرتطم بك الباب وأنت في طريقك إلى الخارج.

مع ذلك، وفي الوقت نفسه، كان عقلي يتفهم جيداً ما كان يحصل. كنت أعلم أن هذا ليست له أي دوافع شخصية. كان جوش يفعل ما شعر أن عليه أن يفعله، وكان يود أن يتم ذلك بسرعة. غالباً ما كنت في موقف دفاعي منذ أن تم الكشف عن تورط روف في عملية التسريب في شهر تموز، يوليو من السنة الفائتة. ولا يمكن لأي سكرتير صحفي أن يبقى مدة أطول في منصبه في مثل هذه الظروف.

مـع ذلك، لم أكن أنوي الاستسلام بهذا الشكل. أخبرت جوش أنني بحاجة إلى بضعة أيـام كي أرتـب بعض الأمور. قلـت: «أرى أن الإعلان عن ذلك مع بدايـة الأسبوع القادم أفضـل مـن الإعلان عنـه الآن». أنهى جوش اللقاء بالقـول إن عليّ أن أتحـدث إلى دان، وترتيب موعد معه بشأن توقيت الإعلان عن الاستقالة.

كان التوقيـت لافتاً علـى جبهة العاملـين في البيت الأبيض. فقد طالـب بعض كبار القـادة العسكريـين السابقين باستقالـة الوزير رمسفيلـد، أو إقالتـه. سئلت عن هذا الموضـوع أثنـاء اللقاء الصحفي قبـل لقائي بجوش. دافعت عـن رمسفيلد بشدة قائلاً إن الرئيـس يـرى أنه «قام بعمل ممتاز في المرحلة التي واجهنـا فيها تحديات في تاريخ أمتنـا». وكان الجنرال بيت بيس رئيس هيئة الأركان المشتركة قد دافع بشدة أيضاً عن رمسفيلد في وقت سابق من ذلك اليوم.

صبـاح اليوم اللاحق وبعد انتهائـي من قراءة التغطية الإخبارية التي نشرتها صحيفة نيويـورك تايمـز، وصحف أخرى علـى صفحاتهـا الأولى، تحدث جوش إلى كل من دان وأنا. شعر أن هناك حاجة لتصعيد وتيرة الدفاع عن رمسفيلد عبر الاقتراح على الرئيس الإدلاء بتصريـح بهذا الشأن. شعرت بـأن نقل الفريق الصحفي إلى كامب ديفيد سيكون عمـلاً مرهقاً جـداً. اتفقنا على أن يقـوم الرئيس بدعوة وزير دفاعـه إلى اجتماع، يدلي بعدهـا بتصريح يكون بمنزلة دعم لـه. (في نهاية المطاف، ترك رمسفيلد العمل في إدارة بوش في شهـر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة 2006 عشيـة الخسائر الكبيرة التي مني بها الحزب الجمهوري في الانتخابات النصفية. المرة الأولى التي سمعت فيها الرئيس يتحدث عـن احتمال ترك رمسفيلـد لمنصبه كانت ضمن حديث عابر سمعتـه بعد أيام قليلة على الإعلان عن استقالتي).

غادرت في وقت مبكر من صباح يوم الجمعة العظيمة من عطلة عيد الفصح – قضيت مع زوجتي جيل العطلة في منتجع في جنوب فرجينيا على امتداد خليج تشيسيبيك. تحدثنا مطولاً عن الموضوع، كما يفعل المتزوجون عادة. لم تكن جيل سعيدة بالأسلوب الذي اتبعه جوش وهو يدفع بـي إلى خارج الباب. تفهمـت مشاعرها، ولكن، وبما أننـي بدأت أنظر إلى المسألـة من زاوية أكثر عقلانية منذ أن انتهى النقاش الأولي بيني وبينه، فقد حاولت

إقناعهـا بتبني مواقف أكثر فلسفية. قلت، في النهاية كنـت أستعد لتقديم استقالتي على أي حـال، وبالرغـم من أنني كنت أود القيام بذلك علـى طريقتي، فإن عدة أشهر في هذا الاتجاه أو ذاك لن يكون لها تأثير كبير على المدى الطويل.

أعـادت جيـل الكرّة. لم تستطع أن تفهم كيف يمكـن للرئيس أن يترك لجوش معالجة المسألـة بهـذه الطريقة بعد كل ما قمت به من أجله. مـرة أخرى، تفهمت مشاعرها. فأنا وجيـل استمتعنا بعطلتيّ نهاية أسبوع قضيناهما برفقـة الرئيس والسيدة بوش في منتجع كامـب ديفيـد، ومجموعة أخرى مختـارة من الضيـوف. وقد شعرتْ هي كمـا شعرت أنا بمحبة كبيرة لكليهما. لقد كان من الصعب عليّ أن أشرح لها أن الأمر ليس شخصياً.

قلـت أخيراً: «أنـا متأكد من أن الرئيس وأنا سوف نتحدث عـن هذا الأمر في الأسبوع القـادم. دعينا نستمتع بعطلـة نهاية الأسبوع هذه، وأن لا نقلق بشـأن هذه المسألة». ولقد تمتعنا بالفعل بهذه العطلة بالرغم من أنني لا أستطيع الزعم بأن أفكاراً عن البيت الأبيض وعن التغيير في وضعي لم تزحف إلى رأسي مرة أو اثنتين.

تحدثـت إلى دان عـبر الهاتف في نهاية الأسبوع. كنت أرتب مع جيل متاعنا في غرفتنا المطلة على خليج تشيسيبيك. اتفقت مع دان على أن يكون يوم الثلاثاء أو الأربعاء القادم موعداً للإعلان عن استقالتي.

قال دان: «أشعر بالأسف لهذا المنحى الذي اتجهت إليه الأمور».

قلـت له مؤكداً: «لا بأس، أنا مستعد للتحرك إلى الأمام. لقد مررنا بتجارب مريعة في السنوات القليلة الماضية. وأظن أن التغيير سيكون مفيداً جداً بالنسبة لي. جيل منزعجة بعض الشيء بسبب هذا الأمر، وتعاني من مشكلة في تفهم ما يجري؛ لكنني بخير».

استدعاني الرئيس في الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين إلى المكتب البيضاوي.

بـدأ بالقول بينما كنت أهم بالجلوس على الكرسـي القريب من مكتبه: «سمعت أنك تحدثـت إلى جوش الأسبوع الماضي. لقد أبلغتـه أنني أظن أنه ليس بالإمكان إيجاد بديل أفضل منك».

تابـع بوش الحديث لدقيقة أو دقيقتين حول تقديره الكبير لما قمت به، وأنه سيفتقدني كثيراً. كان سحره يملأ المكان، ولكن كان من الصعب التنبؤ بصدقية مشاعره، وفيما إذا كان ذلك مجرد محاولة منه للتخفيف عني. ولكن في الوقت الذي كان يتكلم، حدث شيء لم أره في حياتي من قبل: كانت الدموع تنهمر على خديه.

وجـدت نفسـي في موقف غريب وأنـا أواسي الرئيـس: «لا بأس يا سيـدي، أنا مستعد للرحيل. كانت المهمة طويلة».

بقيت في مكتبه لمدة قصيرة، تعانقنا بعدها بحرارة. وفي الوقت الذي كنا نهم بمغادرة المكتب معاً، التفت إلي بوش وقال: «سمعت أن جيل منزعجة جداً».

أجبـت: «أجل يا سيدي، إنها كذلـك. من الصعب عليها أن تتفهم ما حدث. ولن يكون من السهل عليّ أن أشرح لها الأسباب، بسبب أنه ليست لديها خلفية سياسية».

قال بوش: «إنها تحبك كثيراً، وقلقها الوحيد هو بشأنك. ما رأيك في أن أتصل بها؟"

توقفـت للحظة ثم قلت: «أعتقد أنها ستقدر لك ذلك جداً؛ ويمكن أن يساعد اتصالك في التخفيف عنها. إنها تحبك وتحب السيدة بوش كثيراً».

قال: «سوف أتصل بها».

تحدثت إلى جيل في وقت لاحق عصر ذلك اليوم. سألته: «هل تحدث الرئيس إليك؟"

قالت: «نعم تحدث إليّ هو وجوش، كل على انفراد».

سألتها: «كيف جرت الأمور؟»

ردت: «لم يكـن علـى الرئيس أن يتصل. لقـد كان لطيفاً جداً وحـاول مساعدتي على تفهم ما جرى. وجوش بدوره كان لطيفاً».

كان باستطاعتـي التخمين أن جيل تأثـرت كثيراً من اللفتة التي قام بها الرئيس والتي تمثلـت باقتطاعه جزءاً من وقته كي يتحدث إليهـا. لم يكن لديها الكثير مما تقوله بشأن

هاتـين المكالمتين. وكانت ما تزال منفعلة بسبب ما قد يحدث لي؛ ولذلك فإن جوش بولتين لم يكن على قائمة أفضل الأشخاص بالنسبة لها في ذلك الوقت.

في يـوم الأربعاء ذاك، وقبل أن يتوجه إلى مدينة توسكيغي في ولاية ألاباما، مشيت مع الرئيـس باتجاه طائرة الهيلوكبتر الرئاسية. ولكن كان علينا التوقف في أحد الأماكن أولاً – وكان ذلـك المـكان يقع جنوب المنطقـة العشبية خارج المكتب البيضـاوي حيث تم إبلاغ الصحفيين بالتجمع هناك بانتظار تصريح صحفي. كان ذلك في المكان نفسه الذي أدلى فيـه الرئيـس بتصريح منذ ثلاث سنـوات تقريباً مفاده أنني سأحل محـل آري فليشر في منصب السكرتير الصحفي. وبينما كنا نسير من المكتب باتجاه الميكروفون الذي ينتظرنا، قال لي الرئيس إنه سيبذل جهداً كي لا يختنق صوته.

تبـين لرجال الصحافة مباشرة، حالما رأونا نمشـي باتجاههم أنني الجثة التي تمشي على قدمين. تحدثت أنا أولاً:

صبـاح الخير للجميع. أنا موجـود هنا الآن لأعلن أننـي سأستقيل من منصب السكرتـير الصحفي للبيت الأبيض. سيدي الرئيس [كان علي هنا أن أنظف حلقي بسرعة شديدة لأنني شعـرت بشيء من الاختناق في صوتي]، كان شرفاً استثنائياً وامتيـازاً بالنسبة لي أن أقوم بالعمل لديك لأكثر مـن سبع سنين حتى الآن، كانت السنتـان والأشهـر التسعة الأخيرة منهـا بصفة السكرتـير الصحفي. يمر البيت الأبيض الآن بمرحلة انتقالية، ولذلك يمكن أن يكون التغيير مفيداً، والوقت مناسب الآن للبدء في إجراء التغيير بدءاً من هذا المنصب. أنا مستعد للتحرك إلى الأمام، فقـد بقيت في هـذا الموقع مدة طويلـة؛ ويغمرني الحماس أنـا وزوجتي ونحن على وشـك البدء في فصل جديد من حياتنا معاً. لقد حققتَ الكثير على مدى السنوات الأخـيرة مع هذا الفريق، ويغمرني الإحساس بالشرف والامتنان لأنني كنت أشكل جزءاً صغيراً من هذا الفريق الرائع والموهوب الذي يضم أشخاصاً أفاضل. بدأت علاقتنـا هنـاك في تكساس، وأتطلـع إلى أن تستمـر في المستقبـل. [عندها، قال الرئيس: «أوافقك على هذا»، وأثار هذا ضحك الآخرين] بالرغم من أنني آمل أن

أصـل إلى هنـاك قبل أن تصل أنت إليها [وأثار هـذا التعليق الضحك من جديد]. قدمت طيلة هذه المدة أفضل ما أستطيع، يا سيدي؛ وقدمت لك الولاء كله. وسوف أستمـر في تقديم ما أستطيعـه إلى أن يستلم خلفي هذا المنصب خلال الأسبوعين أو الثلاثة القادمة. شكراً لكم على منحي هذه الفرصة.

بعدها، جاء دور الرئيس:

في البدايـة أود أن أوجـه الشكـر لسكـوت علـى الخدمات التي قدمهـا لبلاده. لسـت أدري إن كان الطاقـم الصحفي يدرك ذلك أم لا؛ ولكن مهمته كانت مملوءة بالتحديـات بدءاً من التعامـل معكم جميعاً بشكل منتظـم. وأعتقد أنه تولى المهمة الموكلـة إليه بشـكل راقٍ وبأمانة. إنه بحق يمثل ما هـو أفضل في عائلته، وفي الولاية التـي قدمنا منها، وفي بلادنا. سيكـون من الصعب إيجاد بديل لسكوت. ومع ذلك، إنـه هـو من اتخذ القـرار، وأنا قبلته. في يـوم من الأيام القادمـة، سوف نسترخي هـو وأنا على كرسيين هزازيـن في تكساس، ونتذكر الأيام الخـوالي الحلوة، والمدة التي قضاها في منصب السكرتير الصحفي. وبودي أن أؤكد لكم أن شعوري حينها سيكون شعوري نفسه اليوم، وهو أنني سأقول له: لقد قمت بمهمة رائعة يا سكوت.

مـرّ التصريحـان على خـير. ولكن عندمـا تحدَّثَ الرئيـس عن جلوسنـا في كرسيين هزازيـن، حدقـت فيه وفكرت في نفسي، لست ذلك الرجل العجـوز، يا سيدي! أذكر أنني كنـت أنظـر في وجوه بعض الصحفيين، الذيـن تعرفت إليهم جيداً خـلال سني عملي في البيـت الأبيض. كانوا يقومـون بما هو مناط بهم، إنها قصة أخـرى يقومون بتغطيتها في تلـك السلسلة التي لا تنتهي من أخبار البيت الأبيـض. ولكنني رأيت أيضاً بعض تعبيرات التعاطف في وجوه بعضهم الآخر. فقد نشأت بيننا علاقة طيبة بالرغم من كل المماحكات والمناوشات التي جرت في مدة اللغط التي سادت حينها. ولكنهم كانوا جميعاً بشراً أيضاً، وكان من الجميل أن ترى هذه المسحة الإنسانية والشعور بالزمالة ترتسم على وجوههم.

وإذاً، فهـذا ما تعنيه عبارة نهاية الطريق. لحظات الوداع، وحفلات الوداع، والرسائل اللطيفة والكلمات الطيبة التي وردت واختفت. فمنذ ثلاثة أسابيع أعلنت تقديم استقالتي. والآن، أنـا بمفـردي أحمل آخر علبة فيها مقتنياتي الشخصيـة، وأنزل على الدرج المؤدي إلى الطابـق الأرضي باتجاه حي ويسـت إيكسيكيوتيف أفنيو، الذي كنـت سأقود سيارتي عبره للمرة الأخيرة عصر ذلك اليوم الربيعي اللطيف.

لم يكـن يتواجد هناك حينها سوى شخص واحـد – وودي، وهو الضابط المتقاعد من فرقة الخدمة السرية ، بهيئته المهنية الصارمة وهو يرتدي بزته العسكرية البيضاء جالساً في موقعه يحرس المنطقة التي تقع ضمن مدخل الموظفين في الجناح الغربي، حيث يصور وزراء الحكومـة غالباً في تلك المنطقة من قبل مراسلـي وكالات الأنباء وهم يترجلون من سياراتهـم في طريقهم لحضور أحد الاجتماعـات. كان وودي أكثر أهمية بالنسبة لي من بعضـ الأشخاص الذيـن يتولون حماية الرئيس، ومن بعضنا، نحـن أفراد الفريق العامل معه. وكان قد نشأ بيني وبينه نوع من الصداقة.

بينما كان يلتفت، تنبه أنني أسير باتجاهه، همَّ وودي بالوقوف من وراء مكتبه المقوس.

أمـا وقد انتهـت التزاماتي الوظيفيـة الآن، فقد شعرت في تلك اللحظـة أن مشاعري طغـت علـيّ لأول مرة في ذلك اليوم. لقد كانت تجربتي أشبـه بركوب مزلاج أودى بي إلى الكثـير من الدوران والمنعطفات في كل الاتجاهات؛ وهي تجربة لم يكن أحد منا يتصورها في العشريـن من كانون الثاني، يناير، سنة 2001. كنا قد عدنا لتوّنا من آخر رحلة لي مع الرئيس في ذلك اليوم – وكانت ليلة قضيناها في فلوريدا.

قلـت لوودي وأنا أصافحه، وأنظر في عينيه: «الوداع يا وودي. شكراً لك على كل شيء، كان شرفاً لي أن أتعامل معك».

قـال وودي: «إن من دواعي سروري معرفتك. أنت رجل طيب يا سكوت. أتمنى لك حظاً سعيداً».

أجبت: «شكراً يا وودي، انتبه لنفسك».

قال: «انتبه لنفسك أيضاً يا سكوت».

كنـت أتمنى أن تطول هـذه الدردشة وقتاً أطول، لكن صوتي بـدأ يتهدج، وشعرت بأن عيناي بدأتا تغرورقان بالدموع. ولذلك فقد أشحت بوجهي واتجهت خارج الباب. لم أشأ أن أظهر مشاعري أمام وودي، ذلك الرجل الطيب الذي يمثل العديد من الرجال والنساء الذيـن يُبقون على حيوية البيت الأبيـض، ويحفظون أمنه. نحن، أعضاء طاقم الموظفين، نأتي ثم نذهب، لكنهم هم من يبقى؛ وببقائهم تبقى روح الاستمرارية والإلفة التي تذكرنا أن البيت الأبيض ليس ملكاً لأي رئيس أو حزب، بل هو بيت الأمة.

وفيمـا كنـت أصعد إلى سيارتي، أخـذت نفساً عميقاً. وبعد أن قمـت بتثبيت نظاراتي الشمسيـة في مكانهـا، وسيطرت على دموعي، قدت سيارتي عـبر حواجز التفتيش ملوحاً بيدي للمرة الأخيرة لزملاء وودي في الفرقة العسكرية. لا أعرف بالضبط فيما إذا كانت تلـك طبيعتهم، أو أن الحلـوى التي كانت جيل تعدها لهم هـي السبب في تعاملهم الطيب معـي. لكن رجال الأمن هـؤلاء، كانوا دائماً ودودين ومهنيـين ولطيفين جداً تجاهي. كان قـد مضـى ما يقرب من خمس سنوات على المرة الأولى التي قدت فيها سيارتي إلى البيت الأبيـض مروراً بتلك الوجوه الباسمة والمتحفـزة في آن. كان قد مضى ما يقرب من ثلاث سنـين على تلك اللحظة التي انحنـى فيها رجل الأمن الواقف على حاجز التفتيش في حي ويسـت إيكسيكيوتيـف أفنيو باتجاهي وقال: «لقد أصبحـتَ بمنزلة الرحم في هذا المكان، أنت تعرف ذلك».

هـذه العبارة كانـت كلمة السر التـي يستخدمها رجال الأمن السـري لوصف منصب السكرتير الصحفي. أجبت حينها، والابتسامة تطفو فوق وجهي: «أعرف ذلك». الآن، وفي هذه اللحظة، كنت أنا رحماً للمرة الأخيرة.

كانـت تلـك اللحظة مليئـة بالمشاعـر بالنسبة لي، كـوني استثمرت جل وقتـي في البيت الأبيـض. ولكـن تلك اللحظة أحاطتنـي أيضاً بهالة من الهدوء ما فـوق الواقعي. كنت واعياً تماماً لكل ما يحيط بي، وأنا أنظر من حولي للمرة الأخيرة، وأقود السيارة ببطء عبر محيط البيـت الأبيض. وبينمـا كنت أجتاز حاجز التفتيش الأول، لـوح لي رجل الأمن مودعاً. وعند الحاجـز الثـاني، شاهدت رجل الأمن وهو يلوح لي بيده محييـاً كما لو أنه كان يريد أن يقول «انتبه لنفسك»، تماماً كما كنت ألوح له بيدي.

وصلت إلى آخر حاجز للتفتيش؛ وهناك لوحت بيدي مودعاً رجل الأمن الذي يربض إلى جانبه الكلب المدرب على اكتشاف المتفجرات، وهو الشخص المولج بالإشراف على موقع الحراسة الأخير قبل الانعطاف للمرة الأخيرة باتجاه المخرج الذي يفضي إلى خارج منطقة البيت الأبيض. اتجهت نحو المنزل لأكون مع زوجتي جيل، كي نبدأ بالتخطيط سوياً لمستقبلنا.

ولكن بعد مرور خمس سنوات من العمل داخل معمعة رئاسةٍ كانت تفيض يوماً بالآمال، والآن، ولشديد الأسف، انحرفت عن مسارها بشكل مريع، لم يكن باستطاعتي رؤية الأشياء بوضوح كامل. كنت ما زلت أتساءل: ماذا حدث.

بعد مرور أقل من سنة، أي في أوائل سنة 2007، كنت أتابع محاكمة سكوتر ليبي في واشنطن، وكان فضولي يدفعني نحو معرفة المزيد الذي يمكن أن يوصلني إلى الحقيقة. وفي الوقت الذي أقر أننا قد لا نعرف كل الحقائق المتعلقة بحكاية تسريب اسم وهوية فاليري بليم، فإن الكثير من تلك الحقائق قد تم كشفها بعد انتهاء محاكمته.

لم يكن بمقدور أحدٍ أن يعرف حقيقة حكاية فاليري بليم أكثر من المستشار الخاص باتريك فيتزجيرالد وفريقه. فقد كانت لديهم الصلاحية للإطلاع على كل الوثائق والتسجيلات المتوافرة. وقاموا باستجواب العديد من الناس. استجوبوا العديد من الناس تحت القسم أمام هيئة المحلفين الكبرى؛ ووضعوا أيديهم على أجزاء اللغز كله الذي يمكن أن يتم الكشف عنه. بعضها ما يزال غير معروف، أو مغلق عليه بقوة القانون، ومن غير الممكن أن يتم الكشف عنه. بعض هذه الأجزاء قد لا يكشف عنه أبداً من قبل أفراد مثل تشيني، أو ليبي، أو روف لأنه لا يوجد ما يدفعهم إلى القيام بذلك.

لكن فيتزجيرالد هو مدعٍ مستقيم، ويتمتع بقدر كبير من الاحترام؛ وقد عرض الحقائق في محاكمة ليبي بطريقة مباشرة، وكانت القضية التي عرضها مؤثرة، ومقنعة بالنسبة للمحلفين والمراقبين الخارجيين. نتيجة لذلك، أدين ليبي بارتكاب أربع جنايات

تتعلق بالكذب وعرقلة سير العدالة. أمر القاضي بتغريم ليبي 250000 دولار، وحكم عليه بالسجن مدة ثلاثين شهراً في أحد السجون الفيدرالية.

لسوء الحظ، لم يكن بمقدور هذه المحاكمة الإجابة على جميع الأسئلة التي كان يتداولها الأمريكيون. وسأقوم على امتداد الصفحات الأتية بعرض استنتاجاتي غير النهائية التي أرجو أن تكون ذات فائدة.

هل أراد البيت الأبيض أن يرفع الغطاء عن وضع فاليري بليم انتقاماً من زوجها، جو ويلسون وذلك بسبب اتهامه للإدارة بسوء استخدام أجهزة المخابرات؟ لا أعتقد أن ذلك يعود إلى رغبة الإدارة في الانتقام منه؛ بل أميل إلى الاعتقاد أن بليم أصبحت ببساطة منصة انطلاق لحملة أوسع يقودها نائب الرئيس تشيني للنيل علناً من مصداقية ويلسون، ومن ثم، وضع حد لأي تأثير ممكن للانتقادات التي وجهها للإدارة. فالرئيس كان على علم بهذه الحملة الأوسع بشكل عام، وقام بتفويض تشيني باستخدام أجزاء من تقويم الاستخبارات الوطنية لدعم هذه الحملة. وعندما حاول نائب الرئيس معرفة الكيفية التي تم عبرها اختيار ويلسون من قبل وكالة المخابرات المركزية للسفر إلى النيجر، حينها أصبحت هوية زوجته ودورها في الوكالة في متناول اليد.

وكما أظهرت الوثائق التي كشف عنها فيتزجيرالد والمكتوبة بخط يد نائب الرئيس، فقد تساءل تشيني فيما إذا كانت الرحلة قد ساعدت في الترتيب لها زوجته بقصد الاستجمام على نفقة الدولة، ومبنية على ذريعة محاباة الأقارب. وفي الوقت الذي بدأ تشيني وسكوتر ليبي، رئيس أركانه، بالتنقيب عن جذور هذه القصة، بدأ تداول اسم بليم بين مسؤولي الإدارة في وكالة المخابرات المركزية، ووزارة الخارجية، ومكتب نائب الرئيس.

دافع بعضهم عن ليبي وروف قائلين بأنها ليسا من قام بتسريب اسم بليم وهويتها إلى نوفاك. في الحقيقة، أول من فعل ذلك كان نائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج. ولكن قبل أن يقوم نوفاك بالكشف عن هوية بليم إلى الجمهور، كان روف وليبي قد أبلغا صحفيين آخرين عن هويتها - وأصبح روف المصدر المؤكد الثاني لنوفاك الذي استند إليه في مقالته.

تحول ليبي إلى لاعب أساسي في لعبة النيل من مصداقية ويلسون بينما أصبحت هوية بليم، كما أوضح فيتزجيرالد في مرافعته الختامية، مجرد سلاح آخر جاهز للاستخدام في معارك واشنطن السياسية. بالنسبة لليبي، كما قال فيتزجيرالد، فإن بليم «لم يكن اسمها فاليري ويلسون، ولم تكن حتى مجرد شخص؛ بل كانت مجرد حجة، أو حقيقة جاهزة للاستعمال ضد جو ويلسون». أظن أن فيتزجيرالد كان محقاً في ذلك.

هل قام نائب الرئيس تحديداً بتوجيه رئيس أركانه ليبي للكشف عن اسم بليم وهويتها؟ لا أعرف. زعم محامو ليبي أن فيتزجيرالد كان يسعى إلى تحريك غمامة من الشك باتجاه موقع نائب الرئيس أثناء مدة المحاكمة من دون تقديم أي بديل. لكن المستشار الخاص رفض هذا الزعم بشدة. أوضح فيتزجيرالد في هذا الصدد «أننا لم نضع تلك الغمامة هناك. لقد استقرت تلك الغمامة فوق مكتب نائب الرئيس لأن المتهم عرقل سير العدالة وكذب بشأن ما حدث».

هل كان بوش يعلم شيئاً عن كشف هوية بليم؟ لا أستطيع التكهن بأنه كان يعلم شيئاً عن هذا الموضوع، وذلك استناداً إلى أحاديثي معه في تلك الفترة. كانت عباراته في واقع الأمر تدل على أن روف قام بتضليله أيضاً. أوضح فيتزجيرالد أيضاً، وهذا مثبت في ملفات المحكمة، أن «الرئيس لم يكن يعلم شيئاً» عن الدور الذي قام به ليبي «في الكشف عن وظيفة السيدة ويلسون في وكالة المخابرات المركزية». هل كان تفويضه السري لتشيني لاقتباس أجزاء من تقويم المخابرات الوطنية هو ما حرّكَ مسألة الكشف عن هوية بليم؟ ربما. لقد حرّض ذلك بالتأكيد الجهود المجهولة المصدر للقيام بهجوم مضاد على اتهامات ويلسون. للأسف، هذه هي الطريقة التي تدار فيها اللعبة في واشنطن.

هل تم ارتكاب جريمة ضمنية من قبل أي مسؤول في الإدارة عبر الكشف عن هوية بليم؟ لا أعرف. فقد كان ريتشارد أرميتاج المصدر الأول لروبرت نوفاك فيما يتعلق بهوية بليم، وكان المدعون العامّون ميالين إلى الاعتقاد أن هذا التسريب كان غير مقصود من أرميتاج. لكن من الزيف التأكيد أنه كان الوحيد الذي أفشى بالمعلومات حول هوية بليم. نعرف الآن أن ليبي، وروف، وآري فليشر كشفوا عن هويتها أيضاً أمام صحفيين قبل أن

ينقل نوفاك الخبر. ويبدو أن فليشر أفشى بهذه المعلومات من دون أن يعلم أنها ذات طابع سري، بينما استمر روف في القول إنه لم يقم بتسريب اسمها، وأنه كشف عن هويتها أمام كوبر فقط كي يمنعه من نقل أخبار غير صحيحة.

هل قام هؤلاء بارتكاب جريمة من خلال إفشاء هوية بليم؟ لا أستطيع الجزم بذلك. ويعود ذلك جزئياً إلى أن هذا هو موضوع تقني وقانوني لست مؤهلاً لإعطاء رأي فيه. لم يتهم أي من هؤلاء الأشخاص بارتكاب جريمة بسبب إفشاء هويتها؛ لكنني أعرف أن ما فعلوه كان خطأ وضاراً بالأمن القومي، بغض النظر عما إذا كان الكشف عنها يضر بأي مصادر أو أساليب. كانت بليم ضابطاً سرياً تعمل مع وكالة المخابرات المركزية حينها، وكان عليهم أن لا يتحدثوا إلى الصحفيين حول هذا الموضوع سواء أكان ذلك جرماً يعاقب عليه القانون أم لا.

فقد حاول مكتب نائب الرئيس تقصي الأسباب التي دعت إلى إيفاد ويلسون إلى النيجر. وعندما تم ذكر اسم زوجته، بدأ هذا الخبر ينتشر في أروقة وزارة الخارجية والبيت الأبيض مسبباً في خلق بيئة من المبررات لتداول هويتها. وكما ظهر في ملفات المحكمة فيما بعد، فقد حاول ليبي الاستعانة بمساعدة آري فليشر كي يتم نشرها بين الصحفيين. وبعد أن اتصل نوفاك بروف، ذهب هذا الأخير إلى ليبي ليعلمه أن نوفاك سينشر مقالاً حول دورها. كما كشف روف عن هويتها لمات كوبر، الصحفي في مجلة تايم.

أما بالنسبة لما قاله لي كل من روف وليبي عندما قمت بتبرئتهما علناً في اللقاء الصحفي، فإن بإمكاني الاستنتاج أن الاثنين ضللاني عمداً. أعدتُ طرح هذه الحقائق في هذا الكتاب. ولكن ضعوا جانباً ما كتبته، وتأملوا حقيقة أخرى مهمة. فكل المراقبين المحايدين، واستناداً إلى الحقائق التي أصبحت معلنة، يجمعون على أن ما قلته لصالحهما في حينه كان كاذباً؛ فقد كانا في حقيقة الأمر متورطَين في الكشف عن هويتها - أو تسريب هويتها - من دون أن يفصحا عن اسميهما لبعض الصحفيين. كما أنني أعلنت حينها على الملأ أن تعليقاتي تلك كانت مبنية على تأكيدات شخصية من قبل كل من روف وليبي. قلت حينها: «إنهما أكدا لي أنهما غير متورطَين» في قضية تسريب معلومات سرية. ما كنت أبداً أن أدلي بتصريح كهذا لو كنت أعلم الحقائق التي ذكرتها آنفاً.

لم يقـم أي منهما بتصحيح مسـار الوقائع عندما كان بإمكانهما القيام بذلك. بدلاً من ذلـك، تـركا كلماتي تقف في العراء لمدة سنتين. كان روف ظريفاً جداً عندما صرح لمحطتيّ CNN و ABC الإخباريتـيْن قائلاً: «لم أكـن أعرف اسمها، ولم أقم بتسريب اسمها» وذلك سنـة 2004. لم يكـن عليه معرفة اسـم بليم كي يقوم بتسريب هويتهـا كما فعل مع مراسل مجلـة تايم في البيت الأبيض مات كوبر، وكما أكد لبـوب نوفاك. وهكذا فقد تركني كل من روف وليبي بشكل متعمد أن أقول للجمهور أكاذيب تصب في صالحهما - وهو سوء استخدام واضح لدور السكرتير الصحفي للبيت الأبيض. لكنني أحمل نفسي مسؤولية السماح لشيء مثل هذا أن يحدث. كان يجب عليّ أن لا أسمح بان أوضع في هذا الموقف - انتهى.

من الواضح بالنسبة لي أن سكوتر ليبي مذنب أيضاً بجريمتيّ الحنث باليمين وعرقلة سير العدالة؛ وهما الجريمتان اللتان حكم عليه بموجبهما.

عندمـا ألغى الرئيس بوش الحكم القاضي بسجن ليبـي، ومن ثم حماه من قضاء ولو ليلـة واحدة خلف القضبان، شعرت بكثير من خيبـة الأمل. فهذا الشكل من التعامل يقلل مـن قيمة نظامنا القضائي. هذا لا يعني أننـي كنت أتمنى رؤية شخص عملت إلى جانبه يومـاً ما، وهو يمضـي مدة عقوبته في السجـن. فالسجن ليس مزحـة، ولا أرغب في رؤية أحـد أعرفه، أو أهتم له يدخـل السجن. وبكل تأكيد، لا يدخل هـذا ضمن بوتقة المشاعر الشخصية السلبية بالنسبة إليّ. الحياة أقصر من أن يسفح المرء وقته أو طاقته من أجل مشاعـر الانتقام. لكنني أؤمن بحكم القانون، وأظن كذلك أن الرئيس، أياً كان، والطاقم الـذي يعمل معه أمامهم التزام خاص يقضي بـأن يكونوا جميعاً تحت مظلة القانون نصاً وروحـاً. للرئيس بوش بالتأكيـد، الحق والسلطة اللذان يخولانه إلغـاء العقوبة على ليبي. ولكـن لجـوءه إلى هذا الخيار، أوصـل رسالة سلبية جـداً لأمريكة والعـالم - مفادها أن السلـوك الإجرامـي في الولايات المتحدة لا يعاقب عليـه إذا كان يصب في مصلحة قضية سياسية، هذا إذا كان الذين يدعمون هذه القضية السياسية لديهم السلطة للقيام بذلك؛ خصوصاً وأن أولئك الذين هم في السلطة يملكون مفتاحاً لنظام عدالة مختلف.

كما شرحت سابقاً في هذا الكتاب، أظن أن من المؤسف أن العقلية الحزبية المتمثلة في إستراتيجية الحملة الدائمة التي تتبنى مقولة «الرابح يأخذ كل شيء» قد فرضت الكثير من التأثير على الطريقة التي تحكم فيها بلادنا. فالتدخل من أجل إيقاف حكم قضائي نزيه وعادل أخلاقياً بسبب أن المتهم على صلة بأشخاص من ذوي النفوذ السياسي يعد واحداً من أعراض هذا التوجه المستهجن.

وماذا عن الكلمات الست عشرة التي أثارت كل هذا اللغط؟ هل كانت إدارة بوش مذنبة بتهمة التعمد في تضليل الشعب الأمريكي بست عشرة كلمة؟ لا أظن ذلك. أظن أن الباحثين في مركز أنينبيرغ لتقصي الحقائق السياسية الذي يصف ذاته بالمدافع الحزبي عن الناخبين، والهادف إلى التخفيف من حدة الخداع والاضطراب في الرؤية في السياسة الأمريكية كشفوا عن مكمن الداء في موقعهم الإلكتروني الموسوم factcheck.org:

لا شيء في المعلومات الجديدة يشير إلى أن العراق ضُبِطَ يوماً وهو يحاول شراء اليورانيوم، ويؤكد تقرير مجلس الشيوخ أن محللي المخابرات الأمريكية توصلوا إلى استنتاج مفاده أنهم يشككون في أن يكون العراق قد قام بمجرد محاولة لشراء هذه البضاعة. في حقيقة الأمر، اعترف كل من البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية أن الكلمات الست عشرة كان يجب أن لا تكون ضمن الخطاب الذي ألقاه بوش.

لكن ما قاله – من أن العراق سعى للحصول على اليورانيوم – كان بالضبط ما أبلغته به أجهزة الاستخبارات في كل من بريطانيا وأمريكة. إذاً يمكن القول إن بوش قد تعرض لشكل من أشكال الخداع، ولكن ذلك لا يعد شكلاً من أشكال الكذب.

اعتُبِرَتْ «الكلمات الست عشرة» التي تضمنها خطاب بوش حول حال الاتحاد في الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني، يناير، سنة 2003 بمنزلة دليل على أن الرئيس قاد الولايات المتحدة إلى حرب وهو يعرف أنه يستخدم معلومات كاذبة. تظهر التقارير الجديدة أن بوش يؤكد بما لا يرقى إليه الشك، ما قالته المخابرات البريطانية، وأن المخابرات الأمريكية لديها الاعتقاد نفسه.

هذا لا يعني أن إدارة بوش بريئة في الطريقة التي تعاملت مع التقارير الاستخباراتية في الفترة التي سبقت إعلان الحرب. وكما أوضحت في هذا الكتاب، قادت عقلية الحملة أحياناً الرئيس بوش وكبار مستشاريه إلى اللجوء للف والدوران، والاختباء، واللجوء إلى الظل، والمبالغة في الحقائق، والتعمية على البديهيات، وتجاهل التحذيرات التي كان من الضروري أن ترافق حججهم التي كانوا يسوقونها. وبدلاً من أن يلجؤوا إلى خيار الصراحة والصدق، فقد اختاروا تسويق الحرب؛ وهم بذلك، أساؤوا إلى الشعب الأمريكي، وإلى ديمقراطيتنا. إلا أن ذلك لا يعد على الدرجة نفسها من القول إنهم ضللوا الشعب الأمريكي وكذبوا عليه بشكل مقصود - وهي كلمات ذات شحن عاطفي تنحو باتجاه طمس بعض الحقائق والدروس المهمة في خضم ضباب القنص السياسي المهيمن على جو الاتهامات التي لا يمكن إثباتها. من وجهة نظري، فإن الدليل يصب في صالح أحد الاتهامين، وليس الآخر. لكن ممارسة تكتيكات الحملة الدائمة التي تصب الزيت على نار ثقافة الخداع في واشنطن تشكل مشكلة بحد ذاتها.

لا أعتقد أن الطريق إلى ديمقراطية أفضل تمر من خلال طريق المزاعم المبالغ فيها، أو الهجومات الحزبية المضللة، أو الاتهامات التي لا أساس لها، والمبنية على سوء النية. لا يمكن رؤية أيٍّ من الحزبين الرئيسين في بلادنا خزاناً للشر، لأن الغالبية الساحقة من زعمائنا في طريق الكونغرس، وعلى كل مستويات العمل الحكومي هي مجموعة من المواطنين الشرفاء، وذوي النيات الحسنة، والجادين الذين يحبون بلادهم، ويرغبون بالقيام بالشيء الصحيح. في معرض تشخيصنا للمشكلات التي نعاني منها، وكافة التغييرات التي يجب أن نجريها، أعتقد أن من المهم جداً الالتزام بالحقيقة، حتى عندما تكون أقل وضوحاً، أو أكثر تعقيداً وضبابية مما يرغب المتطرفون الحزبيون من الجانبين أن يختاروا تصديقه.